

الخميس 12 فيفري 2026

مقياس : مناهج وتقنيات البحوث الكيفية في السمع البصري

المحاضرة الثانية : الباراديغم التفسيري في البحوث الكيفية

تمهيد :

شهدت العلوم الاجتماعية والإنسانية تحولات عميقة في محاولة فهمها للواقع الاجتماعي ، حيث لم يعد يُنظر إلى الظواهر الاجتماعية باعتبارها موضوعات قابلة للقياس فقط ، بل باعتبارها أنساقا من المعاني والتفاعلات الرمزية ، في هذا السياق برز ما يعرف بالباراديغم التفسيري كإطار معرفي يؤسس للبحث الكيفي ، خاصة في الدراسات الإعلامية والاتصالية ، فالظاهرة الإعلامية ليست مجرد رسالة ترسل وتستقبل بل هي بناء رمزي يتشكل من خلال التفاعل بين المنتج والمتلقي والسياق الثقافي .

1 . تعريف الباراديغم :

الباراديغم هو الإطار المرجعي المعرفي الذي يحدد للباحث طبيعة الواقع، وطبيعة المعرفة، والمنهج المناسب لدراسة الظواهر ، ويتضمن ثلاثة أبعاد أساسية:

- البعد الأنطولوجي (طبيعة الواقع)
- البعد الإبستمولوجي (طبيعة المعرفة)
- البعد المنهجي (كيفية إنتاج المعرفة)

2. من الباراديغم الوضعي إلى الباراديغم التفسيري

في العلوم الاجتماعية، ساد لفترة طويلة الباراديغم الوضعي الذي تأثر بالعلوم الطبيعية، واعتبر أن:

- ❖ الواقع موضوعي
- ❖ الظواهر قابلة للقياس
- ❖ الهدف هو تفسير العلاقات السببية

لكن هذا التوجه واجه انتقادات لأنه تعامل مع الظواهر الاجتماعية كما لو كانت ظواهر طبيعية، متجاهلاً بعدها الرمزي والمعنوي ، وهنا ظهر الباراديغم التفسيري كبديل إبستمولوجي.

3. الجذور الفكرية للباراديغم التفسيري :

يرتكز هذا الباراديغم على ثلاث مرجعيات أساسية:

أ . **الفهم عند ماكس فيبر**: أكد عالم الاجتماع الألماني Max Weber ماكس فيبر أن العلوم الاجتماعية يجب أن تعتمد على "الفهم"، أي فهم المعنى الذي يعطيه الفاعل الاجتماعي لسلوكه ، فالظاهرة الاجتماعية لا تُفهم إلا من داخلها.

ب . **التفاعل الرمزي** : يرتبط بأعمال الفيلسوف الأمريكي جورج هيربرت ميد George Herbert Mead ، حيث يرى أن المعاني تتشكل من خلال التفاعل الاجتماعي، وأن الأفراد يتصرفون بناءً على المعاني التي يبنونها.

ج . **علم الظواهر (الفينومينولوجيا)** : وهي منهج فلسفي أسسه الباحث الألماني Edmund Husserl إدموند هوسرل تركز على دراسة التجربة الإنسانية كما يعيشها الأفراد، وتعتبر أن الواقع ليس موضوعاً خارجياً ثابتاً، بل تجربة معاشة.

4. المرتكزات البنائية للباراديغم التفسيري :

أ. أنطولوجياً (طبيعة الواقع) : تشمل الافتراضات التالية :

❖ **الواقع الاجتماعي واقع مبني اجتماعيا** : لا ينظر إلى الواقع باعتباره معطى موضوعيا

ثابتا ، بل باعتباره نتاجا للتفاعل الإنساني .

❖ **تعددية الواقع** : لا توجد حقيقة واحدة مطلقة ، بل حقائق متعددة تختلف باختلاف

الفاعلين والسياقات .

❖ **المعنى أساس الفعل الاجتماعي** : يتصرف الأفراد بناءً على المعاني التي يمنحونها

للأحداث والرموز ، فهم لا يتصرفون استجابة لمثيرات خارجية فقط ، بل وفق المعاني

التي يبنونها حول المواقف الاجتماعية .

ب. إبستمولوجياً (طبيعة المعرفة) : تشمل الافتراضات التالية :

- ❖ المعرفة ذات طابع تفاعلي : تبني المعرفة من خلال التفاعل بين الباحث والمبحوث
- ❖ الفهم يسبق التفسير السببي : الهدف الأساسي هو فهم المعاني وليس اكتشاف قوانين عامة .

❖ السياق عنصر أساسي في إنتاج المعرفة : لا يمكن فهم الظاهرة الاجتماعية خارج سياقها الثقافي والاجتماعي .

ج. منهجيا (كيفية البحث وإنتاج المعرفة) : ونميز هنا الافتراضات التالية :

- ❖ الاعتماد على المنهج الكيفي : لأن دراسة المعاني تتطلب أدوات تفسيرية وليس قياسا عدديا .

❖ المرونة المنهجية : يسمح الباراديغم التفسيري بتعديل أدوات البحث أثناء الدراسة وفق تطور المعطيات .

❖ التحليل التأويلي للبيانات : البيانات لا تحلل إحصائيا بل تفهم وتؤول .

5. علاقة الباراديغم التفسيري بالبحث الكيفي :

يرتبط البحث الكيفي ارتباطاً عضوياً بالباراديغم التفسيري، إذ يشكّل هذا الأخير الإطار الفلسفي الذي يؤسس له ويوجه اختياراته المنهجية، فإذا كان الباراديغم التفسيري ينطلق من افتراض أن الواقع الاجتماعي مبني بالمعاني وأن الأفراد يتصرفون بناءً على التفسيرات التي يمنحونها لمحيطهم، فإن البحث الكيفي يمثل الامتداد المنهجي لهذه الرؤية، لأنه يسعى إلى فهم تلك المعاني في سياقها الطبيعي بدلاً من قياسها رقمياً ، فالظواهر الإعلامية والسمعية البصرية ليست مجرد معطيات قابلة للإحصاء، بل هي أنساق رمزية وخطابات ثقافية تتطلب قراءة تفسيرية تراعي السياق والتفاعل الاجتماعي، ومن ثمّ، فإن اعتماد المنهج الكيفي لا يُعد خياراً تقنياً فحسب، بل هو اختيار إبستمولوجي نابع من تبني الباحث للباراديغم التفسيري بوصفه إطاراً لفهم الواقع وتحليل دلالاته.

6. البارادايغم التفسيري في الدراسات السمعية البصرية

يتجلى حضور البارادايغم التفسيري بوضوح في الدراسات السمعية البصرية، نظراً للطبيعة الرمزية والمعنوية التي تميز هذا المجال، فالصورة التلفزيونية، والمشهد السينمائي، والخطاب الإشهاري، ليست مجرد عناصر تقنية أو رسائل معلوماتية، بل هي بنيات دلالية مفتوحة على التأويل، تحمل شحنات ثقافية واجتماعية تعكس تصورات المنتجين وتفاعلات المتلقين، ومن هذا المنطلق، يتيح البارادايغم التفسيري مقارنة هذه المضامين من زاوية فهم المعاني التي تُنتج داخل السياق الإعلامي، وتحليل الكيفية التي يُعاد بها بناء الواقع من خلال الصورة والصوت والسرود. كما يسمح بدراسة تلقي الجمهور بوصفه عملية تفسيرية نشطة، لا استجابة سلبية، مما يجعل هذا البارادايغم الإطار الأنسب لتحليل الظواهر السمعية البصرية في بعدها الرمزي والثقافي.

7. الفرق بين البارادايغم التفسيري والبارادايغم الوضعي

البارادايغم التفسيري	البارادايغم الوضعي	البعد
مبني اجتماعيا	ثابت	الواقع
تفاعلية	موضوعية	المعرفة
فهم المعنى	تفسير سببي	الهدف
كيفي	كمي	المنهج

8. حدود البارادايغم الوضعي :

رغم الإسهامات المهمة التي قدمها البارادايغم الوضعي في ترسيخ الطابع العلمي للبحث الاجتماعي، إلا أنه يواجه جملة من الحدود المعرفية والمنهجية، خاصة عند تطبيقه على الظواهر الإعلامية والسمعية البصرية، فالبارادايغم الوضعي يفترض أن الواقع موضوعي وثابت ويمكن قياسه كما تُقاس الظواهر الطبيعية، غير أن الظواهر الاجتماعية والإعلامية تتسم بالتعقيد والرمزية وتعدد الدلالات، مما يجعل اختزالها في مؤشرات رقمية أمراً قاصراً عن إدراك

أبعادها العميقة. كما أن تركيزه على التفسير السببي والعلاقات الخطية بين المتغيرات قد يؤدي إلى إغفال السياق الثقافي والاجتماعي الذي يمنح الظاهرة معناها، إضافة إلى ذلك، فإن افتراض حياد الباحث التام يتجاهل تأثير الخلفية الثقافية والقيمية للباحث في اختيار موضوعه وتأويل معطياته، وفي مجال السمع البصري تحديداً، يصعب على المنهج الوضعي الإحاطة بالدلالات الرمزية للصورة والصوت، أو فهم كيفية تأويل الجمهور للرسائل الإعلامية، مما يكشف عن محدوديته في دراسة الظواهر ذات الطابع المعنوي والتفاعلي.

خلاصة :

يتأسس الباراديغم التفسيري على تصور فلسفي يرى أن الواقع الاجتماعي ليس معطىً موضوعياً ثابتاً، بل هو بناءً رمزي يتشكل من خلال التفاعل الإنساني وإنتاج المعاني، وعلى هذا الأساس، ينتقل الاهتمام من تفسير العلاقات السببية إلى فهم الدلالات التي يمنحها الفاعلون لأفعالهم وسياقاتهم، ويعد هذا التحول الإبستمولوجي أساساً لظهور البحث الكيفي، باعتباره المنهج القادر على تحليل المعاني والخطابات والرموز داخل بيئتها الطبيعية. وفي الدراسات السمعية البصرية، يكتسب الباراديغم التفسيري أهمية خاصة نظراً للطبيعة الرمزية للصورة والصوت وتعدد تأويلات الجمهور، وبذلك يشكل هذا الباراديغم الإطار المعرفي الذي يمكن الباحث من تجاوز المقاربة القياسية للظواهر الإعلامية نحو تحليل أعمق لبنياتها الدلالية والثقافية، مع إدراك حدوده مقارنة بالباراديغم الوضعي، خاصة في ما يتعلق بالتعميم والضبط التجريبي.